جابر بن زيد في خطاب المدونة الإباضية بالمغرب الإسلامي

Jabir ibn Zaid in the Discourse of the Ibadi Moudawana in the Islamic Maghreb

1- بدر الدين عبدو*، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)
b.abdou@univ-skikda.dz
مخبر البحوث والدراسات الاجتماعية جامعة سكيكدة
2- عبد النبيل براني، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)
berrani.b@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023 /05/02 تاريخ القبول: 2023 /05/21 تاريخ النشر: 2023 /06/04

ملخص: يتناول هذا البحث خطاب المدونة الإباضية في المغرب الإسلامي بشأن جابر بن زيد؛ الشخصية الجدلية في التاريخ الإسلامي، حيث يتبناه كل من التراث السني كتابعي ثقة روى الحديث عن مجموعة من الصحابة، وتتبناه المدونة الإباضية على أنه مؤسس المذهب والجماعة، ولا يسعى هذا البحث إلى إثبات أو نفي إباضية أو سنية جابر بن زيد إنما يسعى إلى معرفة البنية الخطابية التي اعتمدها كل فريق، خاصة تلك الموجودة في المدونة الإباضية ويسعى من خلال تتبع مجموعة من النصوص في المدونة الإباضية لإبراز الخطاب الذي اعتمدته هذه المدونة بشأن جابر بن زيد في مختلف العصور، وعن كيفية تطوره، وأنساق دلالاته الاصطلاحية، والسياق الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي أثر وتأثر به الخطاب الإباضي، وسيحاول الباحث في الأخير تفكيك بنية الخطاب الظاهرة والمضمرة التي تكَوَّن منها الخطاب الإباضي، مثل: الكرامة، والجماعة، والآخر، والسلطة، والمخيال، والحنينية.

الكلمات المفتاحية: الإباضية؛ جابر بن زيد؛ الخطاب التاريخي؛ المغرب الإسلامي؛ بنية الخطاب

*- **المؤلف المرسل**

Abstract:
This research focuses on the discourse of the Ibadi Moudawana in Islamic Maghreb regarding the controversial figure in Islamic history, Tabi'i Jaber ibn Zaid. While Sunni tradition considers him a trustworthy Tabi'i who transmitted Hadiths from a group of companions, the Ibadi Moudawana considers him the founder of their doctrine and community.
The research does not aim to prove or disprove the Ibadi or Sunni perspectives on Jaber ibn Zaid, but rather seeks to understand the discourse structure adopted by each group, particularly that found in the Ibadi Moudawana . Through the analysis of various texts in the Ibadi Moudawana, the research aims to highlight the discourse used by the Moudawana in reference to Jaber ibn Zaid throughout different historical periods, and to explore its development, semantic connotations, and the social, political, and cultural contexts that influenced and were influenced by the Ibadi discourse. Lastly, the researcher seeks to deconstruct the overt and covert rhetorical structures that constitute the Ibadi discourse, such as dignity, community, otherness, authority, memory, collective imagination, and nostalgia.
Keywords: Ibadi; Jabir ibn Zaid; Historical discourse; Islamic Maghreb; Discourse structure

- **مقدمة**

عبَّرت المدونة الاباضية عموما وفرعها المغربي على وجه الخصوص عن تميزها عبر العصور، خاصة تلك ذات الصبغة التاريخية التي سُميّت في التراث الإباضي بالسِّيَر، وتعد الفترة الوسيطيّة هي الفترة المؤسِّسة لهذا الفن السِّيَري، ومن خلالها يُمكن رصد التطور الذي حصل في هذه المدونة. إلى جانب ذلك يُعد العصر الوسيط هو الأضخم إنتاجا؛ لأنه عصر التأصيل والتأسيس للمذهب والجماعة، لهذا سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تتبع الخطابات الإباضية حول شخصية جدليّة في التراث الإسلامي، ألا وهي شخصية جابر بن زيد الذي يعده الإباضية مُؤسِّس

المذهب ومنظم الجماعة، بينما يَعُدّه السُّنَة أحد رواة الحديث المتمسكين بجماعة المسلمين، وسنحاول الإجابة في هذه الورقة البحثية على الاشكال التالي:

كيف مارست المدونة الإباضية خطابها حول جابر بن زيد؟ ولنفهم بنية الخطاب وممارساته ووظائفه ومساراته عند الإباضية وجب أن نجيب عن سؤال ماهية الخطاب التاريخي؟ وكيف كان هذا الخطاب عند الطرف المتمسك بسُنيّة جابر بن زيد؟ ومنه الإجابة على مظاهر الخطاب في المدونة الإباضية؟ وبنيته الظاهرة والخفيّة؟

سعت الكثير من الدراسات السابقة خاصة تلك التي تناولت المذهب الاباضي أو الجماعة الاباضية للعودة إلى مؤسس الجماعة والمذهب وسرد علاقة جابر بن زيد ودوره في التأسيس من بين تلك الدراسات: دراسات عن الاباضية لعمرو خليفة النامي رسالة نال بها صاحبها الدكتوراه من جامعة كمبردج، أما الدراسة الثانية فوُسمت بنشأة الحركة الاباضية لعوض خليفات فالأولى تناولت المذهب والثانية تناولت الجماعة والنشأة، وغيرها من الدراسات الكثير، ولكن في مجملها تعرضت للمذهب ومؤسسه بمنهج تاريخي استقصائي، وهناك دراسات أخرى بحثت في إشكالية اباضية جابر بن زيد من عدمها مثل الدراسة الموسومة بنشأة الحركة الاباضية في البصرة ومناقشة دعوى تأسيس جابر بن زيد لها وعلاقتها بالخوارج لمحمد عبد الفتاح عليان، وهي دراسة مثل الكثير من الدراسات سعت لإثبات أو انكار اباضية جابر بن زيد .

ستسعى هذه الورقة إلى تتبع النصوص وما فيها من خطابات حول جابر بن زيد، ولن تزج بهذا البحث في إثبات أو نفي إباضية جابر بن زيد، بل البحث يدور حول إشكالات منهجية في الخطاب الإباضي، ومحاولة الحفر لتفكيك البنيات الخطابية في المدونة الاباضية، لمعرفة ما قالته وما لم تبُح به المدونة، ولن نقول إننا متمكنون من أدوات منهج تحليل الخطاب التاريخي بل هي محاولة لفتح آفاق بحثية من خلال مقاربات مختلفة ومناهج قلما تستخدم في مثل هكذا مواضيع، والأكيد أن المنهج التاريخي لن يغيب في دراسة تاريخية.

1. جابر بن زيد في المدونة السنية بين الترجمة والخطاب:

من خلال تتبع هذه الورقة البحثية للمدونة السنية في ترجمتها لجابر بن زيد[1]، وبعد ترتيبها ترتيبا كرونولوجي ابتدأت من طبقات ابن سعد ت 230هـ/845م إلى شذرات ابن العماد ت 1089هـ/ 1679م

1- حول ترجمة جابر بن زيد في مصادر الرجال والطبقات والتاريخ يُنظر: أبو عبد الله محمد بن سعد البصريي (ت 230هـ)، **الطبقات الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج7، ص133-135؛ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ)، **التاريخ الكبير**، تحقيق محمد بن صالح بن محمد الدباسي، الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 2019م، ج2، ص708؛ أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت 277هـ)، **المعرفة والتاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1974م، ج2، ص12؛ عبد الرحمن بن عمرو المشهور بأبي زرعة الدمشقي (ت 281هـ)، **التاريخ**، تحقيق شكر الله نعمة الله القوجاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1982م، ص672؛ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم (ت 327هـ)، **الجرح والتعديل**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1952م، ج2، ص494-495؛ محمد بن حبان بن أحمد الدارمي البُستي (ت 354هـ، **الثقات**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند، 1973م، ج4، ص102؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت 430هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، مطبعة السعادة ، مصر، 1974م، ج3، ص85؛ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت 476هـ)، **طبقات الفقهاء**، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970م، ص88؛ أبو الحسن علي بن أبي بكر ابن الأثير (ت 630هـ)، **اللباب في تهذيب الأنساب**، مكتبة المثنى، بغداد، ج1، ص247، 358؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ)، **تهذيب الأسماء واللغات**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص142؛ يوسف بن عبد الرحمن القضاعي الكلبي المزي (ت 742هـ)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980م، ج4، ص436؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ)، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت،ج1، ص80؛ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ج2، ص1200؛ **تذكرة الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج1، ص58؛ **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1985م، ج4، ص482؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، **تهذيب التهذيب**، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، 1908م، ج2، ص39.

مرورا بأكثر من عشرين ترجمة مستمدة من مختلف أصناف المصادر الإسلامية السنية المتقدمة والمتأخرة منها، ومع اختلاف مضمونها وتكوين كاتبها نلاحظ اختلاف الترجمة ليس اختلافا في الدلالات والمعاني بقدر ما هو اختلاف في ضبط الترجمة وأهميتها وخطابها بحسب الفئة التي تخاطبها؛ فالمظان المتقدمة من مصادر الأنساب مثل أنساب الأشراف للبلاذري ت 279هـ/892م[1]، والأنساب للسمعاني ت 562هـ/1167[2]، واللباب لابن الأثير الجزري ت 606هـ/1239م[3]، تأتي ترجماتها مختصرة فيما يفيد فقط معرض ما ألفت من أجله وهو تفصيل أنساب العرب، بينما كتب التاريخ الحولي نجد فيها إشارات إلى ترجمة جابر بن زيد في نهاية حوادث كل سنة أين يعرض المؤلف في نهاية العام 93هـ ترجمة جابر ومن توفي تلك السنة ويذكر الخلافات التي أبرزها من قبله في تاريخ وفاته، مثال ذلك عند الذهبي ت 748هـ/1348م في تاريخ الإسلام[4]، ونفسه ما نجده في ترجمة مختصرة جدا في شذرات الذهب حيث يذكره المؤلف فيمن مات تلك السنة[5].

من الكتب الأخرى كذلك كتب المناقب وفضائل الأعمال، وهي وإن لم نجد فيها ترجمة مفصلة وخاصة بجابر بن زيد إلا أنها تعرض بعض فضائله ضمن الباب الذي يتحدث فيه المؤلف حول موضوع معين ففي قوت القلوب لأبي الطالب المكي ت 386هـ/996م، وأثناء حديثه عن العلم وطريقة السلف وتواضع الصحابة يذكر إجازة ابن عباس رضي الله عنهما ت 68هـ/687م لجابر بقوله "سلوا

1- ينظر: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (ت 279هـ)، **جمل من أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، 1996م، ج7، ص363، ج13 ص365، 380، 403.

2- أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي (ت 562هـ)، **الأنساب**، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الهند، 1962م، ج3، ص416، ج4، ص 130-131.

3- أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير (ت 630هـ)، **اللباب في تهذيب الأنساب**، دار صادر، بيروت، ج1، ص247، 385.

4- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ج2، ص921، 1040.

5- عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد (ت 1089هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1986م، ج1، ص365.

جابر بن زيد فلو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم، وكان من صالحي التابعين"[1]، ويذكره كذلك في باب وصف الإمام والمأموم من باب التقصير في الصلاة، ويعيد إجازة أخرى من ابن عباس الذي كان يستخلف جابرا في الفتيا ويأمر أن يستفتى[2]، هذا النوع من الكتب ولطبيعة تكوين مؤلفها البعيد عن علم الحديث ورجاله نجد فيه المؤلف يتصرف في الرواة ومتن الرواية بما يناسب كتابه.

وقبل الدخول في الكتب الرئيسة لترجمة صاحب موضوعنا هناك مصدر آخر من فئة أخرى وهي كتب الجغرافيا والبلدان ترجم لجابر وهو ياقوت الحموي ت 626هـ/1229م، فأثناء التعريف بالحُرقة وهي ناحية بعُمان ينسب لها أبو الشعثاء جابر بن زيد اليحمدي الأزدي الحُرقي، أحد أئمة السنة[3]، فهو ينسبه إلى أهل السنة والجماعة هذه العبارة والدلالة التي تفيد خطاب النسب، لم يستخدمها ياقوت الحموي في كل كتابه إلا مع جابر بن زيد، ونرى أن هذه الدلالة مفادها خطاب ضمني ينفي فيه ياقوت الحموي صلة جابر بن زيد بالخوارج، وذلك لسببين أوله أنه مطلع على كتب الخوارج أو على الأقل يعلم فحوى مضامينها العامة حيث يقول أثناء تعريفه بمدينة أَزْبَك "لها ذكر في كتب السير، وأخبار الخوارج وغيرهم"[4]، والسبب الثاني هو تعصبه ضد الخوارج حيث يخرجهم من الإسلام أحيانا، يقول في مادة بربرة وهو يتحدث عن البربر بتعصب كبير "وكم ادّعى فيهم مذاهب الخوارج، فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا ثم سفكوا الدماء المحرّمة واستباحوا الفروج بغير حق ونهبوا الأموال واستباحوا الرجال"[5]. لهذا نرى أن استخدامه لمصطلح أئمة السنة جاء كرد على الخطاب الإباضي الذي يرى أن جابر بن زيد هو مؤسس المذهب الإباضي الخارجي.

كتب رجال الحديث وكتب الجرح والتعديل والتراجم، حيث تعتبر جميعها في بوتقة واحدة، لأنها نشأت من بعض وللغاية نفسها، واستخدمت المناهج نفسها، وعادة من يكتبها على الأقل في القرون الأولى لهم اهتمام بالحديث وجمعه وشرحه، ومعرفة صحيحه من سقيمه، عن طريق الرواية والسند، فنجد أنها ركزت في مدلولاتها على ترجمة جابر بن زيد بترجمة مستقلة، ليس باعتباره تابعيا مشهورا

1- محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب المكي (ت 386هـ)، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ج1، ص254

2- نفسه)، ج2، ص352.

3- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، ج2، ص243.

4- نفسه)، ج1، ص137.

5- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص369.

بعلمه، ولا لأنه صَحِب الكثير من الصحابة، ولا حتى لأنه وقف ضد الطغيان، بل لشيء واحد، وهو أنه راوٍ للحديث؛ فركزت هذه الكتب في خطابها لإبراز عدة مدلولات تفيد عدله وثقته في نقل الحديث، ونستخلص بنية خطابها في عدة مواضيع مارسها هذا الخطاب، لنجيب في الأخير عن مدى تأثرها بخطاب الآخر حول شخصية جدلية يستدعيها فريقان؟

1.1 الاسم ودلالة النسب والموطن:

بدا أن الاسم الطويل لا ترجى منه فائدة عدا التمطيط ولكن بعد التمعن جيدا نرى أن الاسم له أهمية كبيرة عند المحدثين فهو يحمل دلالة المعروف لا المجهول، يخاطبنا المؤلف بأن هذا الشخص له نسب ووطن، وينقسم الاسم عادة عند كتب الرجال إلى: الكنية وهو أبو الشعثاء[1] ثم الاسم مرتفع إلى الوالد حتى يفترق مع المتشابه معه، فيسهل تمييزه عنه وهو جابر بن زيد، ثم نسب القبيلة التي عرف بها وهو الأزدي[2]، ثم الموطن والذي من الممكن أن يأتي مع الاسم الواحد بأكثر من موطن كما هو الحال مع ترجمة جابر بن زيد اليحمدي[3]، وهو موطن قبيلته ومنشؤه في عُمان، وكذلك الجوفي[4]، والجوف ناحية بعمان، وقيل: موضع بالبَصرَة، يقال له: درب الجوف[5]، وكذلك البصري[6]، وهو موطنه الذي عاش فيه إلى مماته، وأحيانا الحُرقي[7]. هذه الأماكن توضح الأماكن التي عاش فيها جابر بن زيد في

1- ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص133؛ أبو زكريا يحيى بن معين (ت 233ه)، **التاريخ -رواية أبي الفضل العباس الدوري-**، تحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1979م، ج4، ص81.

2- ابن سعد، المصدر السابق ، ج7، ص133؛ البخاري، المصدر السابق ، ج2، ص708.

3- البخاري، المصدر السابق، ج2، ص708؛ الفسوي، المصدر السابق، ج2، ص15؛ ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ج2، ص494.

4- البخاري، المصدر السابق، ج2، ص708؛ السمعاني، المصدر السابق، ج3، ص413؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص243؛ المزي، المصدر السابق، ج4، ص435.

5- أبو أحمد الحاكم محمد بن محمد النيسابوري الكرابيسي (ت 378ه)، **اللاسامي والكنى**، تحقيق أبو عمر محمد بن علي الأزهري، دار الفاروق للطباعة والنشر، القاهرة، 2015م، ج4، ص20.

6- مسلم بن الحجاج ت261ه)، **الكنى والأسماء**، تحقيق عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1984م، ج1، ص424.

7- من الملاحظ أن الأمر مازال بحاجة إلى تحقيق لأن هذه النسبة لم تظهر إلا مع أبو أحمد الحاكم الكرابيسي في منتصف القرن الرابع ثم استخدمها ابن مندة الأصبهاني في المستخرجة ثم السمعاني

الوقت نفسه تحمل في دلالات خطابها الخفي أن لقاؤه بالصحابة ورواة الحديث خارج هذه الأماكن غير ممكن إلا بدليل.

2.1 فضائل جابر بن زيد:

في طبقات ابن سعد توجد ترجمة مستفيضة تتميز بشمولها لكل المواضيع التي تناولت هذه الشخصية، ومن الراجح أن أغلب من ترجم لجابر فيما بعد قد نقل منها من أهم الفضائل التي يذكرها هي إجازة ابن عباس رضي الله عنهما حول جابر بن زيد حيث يقول: "لَوْ نَزَلَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عِنْدَ قَوْلِ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ لأَوْسَعَهُمْ عَمًا فِي كِتَابِ اللَّهِ عِلْمًا". وهذا النص نجده منقولا عند أغلب كتب التراجم والأنساب والبلدان. وقد أُحصيت ما يناهز العشرين تأليفا من مختلف التآليف يستخدم هذه الإجازة[1]، ويوجد بألفاظ متشابهة تحمل الدلالة نفسها، مثل ما هو في قوت القلوب "سلوا جابر بن زيد فلو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم"[2]، هذا الخطاب الموجه للنخبة العالمة خاصة تلك الناقلة للحديث، كما هو موجه لعامة الناس يحتوي على رسالتين الرسالة الأولى تكمن في مصدر الإجازة

فابن الأثير وياقوت الحموي بعده)، ونرى أن هذه النسبة صحفت من "الجوفي" من طرف النساخ إلى الحرقي. يُنظر، عبد الرحمان ابن منده الأصبهاني (ت 470هـ)، **المستَخرجُ من كُتب النَّاس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرِّجال للمعرفة**، تحقيق عامر حسن صبري التَّميميُّ، وزارة العدل والشئون الإسلامية، البحرين،ج3، ص134؛ الكرابيسي، المصدر السابق، 2015م، ج4، ص20، 235؛ السمعاني، المصدر السابق، ج4، ص130؛ ابن الأثير، اللباب، ج1، ص358؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص243.

1- من المصادر: ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص133؛ البخاري، المصدر السابق، ج2، ص708؛ الفسوي، المصدر السابق، ج2، ص12؛ أبي زرعة الدمشقي، المصدر السابق، ص672؛ ابن أبي حاتم، المصدر السابق، ج2، ص494-495؛ البستي، المصدر السابق، ج4، ص102؛ الأصبهاني، المصدر السابق، ج3، ص85؛ الشيرازي، المصدر السابق، ص88؛ السمعاني، المصدر السابق، ج4، ص131؛ النووي، المصدر السابق، ج1، ص141-142؛ المزي، المصدر السابق، ج4، ص435-436؛ الذهبي، العبر، ج1، ص80؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، ص1200؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص58؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص482؛ ابن حجر، تقريب التهذيب،ج2، ص38؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص36؛ أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة الهجراني الحضرمي الشافعي ت947 هـ)، **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**، تحقيق بوجمعة مكري وخالد زواري، دار المنهاج، جدة، 2008 م، ج1، ص488؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج1، 365.

2- أبو طالب المكي، المصدر السابق، ج1، ص254.

وقيمته، فهو صحابي عرف في الوسط الإسلامي بترجمان القرآن وحبر الأمة، ورأس المفسرين[1]، والرسالة الأخرى تكمن في فحوى الإجازة وهو أن جابر على قدر كبير من العلم خاصة في كتاب الله.

عَنْ إِيَاسَ بن معاوية قَالَ: أَدْرَكْتُ الْبَصْرَةَ وَمُفْتِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أهل عُمَانَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ[2]، ويمكن أن نجد النص نفسه بتعابير مختلفة وألفاظ متعددة. ذلك راجع في تقديرنا لحفظ الكاتب أو المصدر الذي نقل منه[3]، وما يختلف هنا عن الخطاب الأول أن الخطاب الأول فيه إجازة حول كتاب الله أما الرواية الثانية فهي شهادة في تميزه بالفقه والفتيا من تابعي تولى القضاء واشتهر بالعلم والذكاء بين أصحابه، وينتقل الخطاب من مكان محدد هو البصرة إلى مجال أوسع وهو العالم الإسلامي، حيث يقول عمرو بن دينار "مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ أبي الشَّعْثَاءِ"[4].

يأتي خطاب المدونة السنية بالإضافة لما ذكرنا حول علمه مشحونا بالمكارم والفضائل الأخرى مثل اللبابة[5]، والتواضع[6]، والزهد والكرم[1]، والأمانة[2]. كل هذه المعاني تشحن خطاب الفضيلة لدي جابر من

1- أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت 150ه)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق عبد الله محمود شحاته)، دار إحياء التراث، بيروت، 2002م، ج 5 ص8.

2- ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص133.

3- يُنظر في الرواية نفسها عن إياس بن معاوية: ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص134؛ أبو نعيم الأصبهاني، المصدر السابق، ج3، ص86؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، ص1200؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج2، ص38.

4- ابن سعد، المصدر السابق، ج3، ص133؛ البخاري، المصدر السابق، ج2، ص708؛ الفسوي، المصدر السابق، ج2، ص13؛ أبو نعيم الأصبهاني، المصدر السابق، ج3، ص86؛ الشيرازي، المصدر السابق، ص88؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، ص1200؛ تذكرة الحفاظ، ج1، ص58؛ سير أعلام النبلاء، ج4، ص482.

5- وتأتي بصيغة التأكيد "كَانَ لَبِيبًا لَبِيبًا لَبِيبًا". ويمكن أن تأتي بصيغ أخرى. ينظر: ابن سعد، المصدر السابق، ج2، ص133؛ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241ه)، **العلل ومعرفة الرجال -رواية ابنه عبد الله-**، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، دار الخاني ، الرياض، 2001م، ج2، ص376؛ الفسوي، المصدر السابق، ج2، ص12 ص14؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، ص1200.

6- في قولهم، "وَلَوْ رَأَيْتَه)، قُلْتَ، لَا يُحْسِنُ شَيْئًا". ينظر: البخاري، التاريخ الكبير، ج2، ص708؛ الفسوي، المصدر السابق، ج2، ص14.

خلال من روى عنه لتجعله بعيدا عن أوجه الاتهام من الكذب، فيجعل الحديث الذي ينقلونه عنه صحيحا ولا يقبل الشك، في خطاب ضمني أساسه نقل حديث النبي صلى الله عليه وسلم وظاهره جابر بن زيد.

3.1 الإباضية وجابر بن زيد في خطاب المدونة السنية:

لم يخل الخطاب السني من دعوى تبرئة جابر بن زيد من الإباضية، وبالرغم من أن الخوارج بصفة عامة والإباضية بشكل خاصة قُبِل بعض رواتهم في مدونة الحديث السنية يقول أبو داود ت 275هـ/889م: "ليس في أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج"، ثم ذكر عمران بن حطان وأبا حسان الأعرج[3]، وهذان الأخيران خارجيان معروفان، يقول ابن تيمية ت 728هـ/1328م " وَصَحَّ فِيهِمُ أي الخوارج الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... لَيْسُوا مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ، بَلْ هُمْ مَعْرُوفُونَ بِالصِّدْقِ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ حَدِيثَهُمْ مِنْ أَصَحِّ الْحَدِيثِ"[4]، وبالرغم من هذه المكانة التي يحظى بها بعض رجال الخوارج عند أهل الحديث في نقل ثاني مصدر من مصادر التشريع عند المسلمين، إلا أن بعض المحدثين رأى بعدم قبول رواية أهل الأهواء والبدع والذي يدخل ضمنه الخوارج. يقول الدارقطني ت 385هـ/995م في عمران بن حطان: "متروك لسوء اعتقاده وخبث رأيه"[5]. إذن فالخطاب السني ليس متفقا حول رواية الخوارج للحديث رغم أن أكثرهم جعل بعضهم ثقة، إلا أن الخطاب متفق حول أن الخوارج من أهل البدع والأهواء.

1- وذلك في قول: " كَانَ مُسْلِمًا عِنْدَ الدَّرَهِمِ". ينظر، الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، ج2، ص13-14؛ أبو زرعة الدمشقي، المصدر السابق، ص672.

2- يراجع قصة القصبة التي أخذها من حائط طرد بها الكلاب. والقصة انفرد بها أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ج3، ص87.

3- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت 275هـ)، **سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني في الجرح والتعديل**، تحقيق محمد علي قاسم العمري، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1983م، مقدمة المحقق ص36.

4- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1986م، ج1، ص68.

5- أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني (ت 385هـ)، **الإلزامات والتتبع**، تحقيق أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1985م، ص259.

بالعودة إلى جابر بن زيد وعلاقته بالإباضية في خطاب المدونة السنية فالخطاب السني كان واضح الدلالة في معناه اللغوي، وأنتج كرد فعل في مرحلة تاريخية تنازعت شخصية مؤثرة على الساحة المعرفية، والبعد التواصلي للخطاب كان متفاعلا مع محيطه الآني وينقل الخطاب عبر المدونات ليعيد إنتاج نفسه في كل مرة تثار فيها علاقة جابر بن زيد بالإباضية، وهنا ننقل بعض النصوص التي تحمل مضمون الخطاب.

عن قتادة عن عزرة الكوفي قال: قلت لجابر بن زيد إن الإباضية يزعمون أنك منهم قال: أبرأ إلى الله منهم، قال سعيد في حديثه: قلت له ذلك وهو يموت[1]، والنص هنا ينقسم إلى قسمين في القسم الأول بنية الخطاب ظاهرة وهي أنه لا علاقة لجابر بالإباضية، نقلا عنه وفي مجلسه، بدلالة تفيد المخاطب أنه لم يكن يوما منهم "أبرأ"، أما القسم الثاني فبنية الخطاب خفية فدلالة أن السائل سأله وهو على "فراش الموت"، تعني أنه لا يمكن أن يكون بعدها جابر إباضيا بأي حال من الأحوال، عند البخاري يتغير الخطاب من لسان الحال إلى لسان الصاحب والملازم: "حدثنا سفيان، قلت لعمرو بن دينار: سمعت من أبي الشعثاء من أمر الإباضية، أو شيئا مما يقولون؟ فقال: ما سمعت منه شيئا قط"[2]. وفي الخطاب نفسه يأتي قول هند بنت المهلب: "وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا: إنه كان إباضيا، فقالت: كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعا إلي وإلى أمي، فما أعلم شيئا كان يقربني إلى الله إلا أمرني به، ولا شيئا يباعدني عن الله عز وجل إلا نهاني عنه، وما دعاني إلى الإباضية قط، ولا أمرني بها، وإن كان ليأمرني أن أضع الخمار، ووضعت يدها على الجبهة"[3]، فمضمرات الخطاب تفيد أن أصحابه الذين كانوا يلازمونه وأقرباؤه الذين كانوا عصبته وأهله، وهم أحق الناس بنصيحته كيف لا وهم إذا نصحهم أجابوا، وإن أخبر لهم سر دعوته ومعتقده أسروا، فكأن الخطاب يتساءل إن كان جابر إباضيا، أليس أولى الناس الذين كان يجب أن يدعوهم هم أصحابه وأقرباؤه؟ والجواب في الخطاب ضمني الدلالة أنه لا يمكن أن يكون كذلك؟

نختم بقصة جابر بن زيد وهو على فراش الموت وهي قصة طويلة مفادها أنه سئل وهو على فراش الموت ماذا تشتهي؟ قال نظرة إلى الحسن البصري، فأتاه الحسن البصري، وبعد حديث سأله الحسن: إن الإباضية تتولاك. قال: فقال: أبرأ إلى الله منهم. قال: فما تقول في أهل النهر؟ قال: فقال: أبرأ إلى الله منهم[4]. وهذه الزيادة ينفرد بها ابن سعد في طبقاته. فتذكر القصة في مصادر أخرى ولكن من غير الزيادة

1- ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص134.

2- البخاري، المصدر السابق، ج2، ص708.

3- أبو نعيم الأصبهاني، المصدر السابق، ج3، ص89.

4- ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص135؛

التي يسأل فيها جابر عن علاقته بالإباضية[1]، وبالرغم من أن القصة مذكورة كذلك في المدونة الإباضية كما سنرى لاحقا، إلا أنه يجعلنا نتساءل عما لم يفصح عنه النص وأضمره الخطاب في بنية خفية مفادها كيف لرجل على فراش الموت أن يسأل هذا السؤال؟ ألهذا الحد فرض الخطاب الإباضي نفسه على الساحة السنية رغم قوة الخطاب لهذه الأخيرة وكثرته وتفاعله مع الوسط المعرفي مع النخبة والعامة على حد السواء؟

2. جابر بن زيد في خطاب المدونة الإباضية:

1.2 سياق النص وإكراهات الواقع في المدونة الاباضية:

إن كانت نصوص التراجم السنية أُنتِجت في فترة العمل على المدونات الحديثية كعلم مساعد لمعرفة أخبار الرواة ومن يُأخذ منه ومن يُترك، لتتطور فيما بعد إلى أنواع كثيرة استقلت عن علم الحديث لما اكتمل بناؤه كعلم وأُنتُهيَ من جمعه درايةً وروايةً، لتصبح التراجم خطاب النخبة العالمة في مقابل الحوليات التي مثلت خطاب السلطة.

المنحى الذي أخذته المدونات الإباضية كان منحى مغايرا، خاصة تلك التي تبدو قريبة من التراجم، ما يُعرف بمدونات السير والطبقات، فالجماعات الإباضية سواء في المغرب أم المشرق لم تعش ذلك الرخاء والأمان الذي عاشه من كان في كنف السلطة فاعتبرت دائما على أنها شاذة عن الجماعة[2]، لهذا فخطاب النص الأسمى كان هو المحافظة على استمرارية الجماعة بذكر سير الأولين، فكانت هذه المدونات نتيجة خوف من انطماس الآثار [3] أو رغبةٍ في إبراز مناقب الإخوان[4].

إذا كانت بنيات الخطاب السني حول جابر بن زيد أغلبها كانت ظاهرة وسهلة الفهم، فإن الأمر يختلف كثيرا في المدونة الإباضية فنحن هنا لسنا بإزاء شخصية تروي الحديث كغيرها من المئات عند السنة، بل أمام شخصية مؤسسة للمذهب في الخطاب الإباضي، لهذا فالُبنية الخطابية تختلف خاصة إذا

1- الفسوي، المصدر السابق، ج2، ص15؛ أبو نعيم الأصبهاني، المصدر السابق، ج3، ص89.

2- علاوة عمارة، "بين الاعتناق والقتل.. حال مآل الإباضيين المغاربة من خلال النصوص الفقهية المالكية"، ترجمة عبد القادر مباركية، **مجلة مدارات تاريخية**، جامعة حمة لخضر، الواديالجزائر، المجلد الثاني، عدد6، جوان 2020م، ص272-291.

3- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني حي 474ه)، **كتاب السيرة وأخبار الأئمة**، تحقيق عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م، ص39.

4- أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي (ت 928ه)، **كتاب السير**، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص11.

علمنا أن أغلب النصوص أُنتجت في ظروف سياسية واجتماعية معقدة، ويختلف كذلك الخطاب من مدونة لأخرى، فيشحن النص ببنيات خطابية جديدة بحسب الظرف الذي أنتج فيه، وخطاب جابر المؤسس هو الخطاب الجامع على المدونات الإباضية.

2.2 خطاب المؤسس جابر بن زيد:

في أغلب المدونات يكون جابر بن زيد حاضرا في خطاب تأسيس الجماعة والمذهب، فإلى جانب ذكره كأول اسم في الطبقة الثانية والتي تأتي بعد الصحابة مباشرة، فإن النصوص تحمل خطابا منقبيا يليق بمؤسس المذهب، وتجعل كل مناقب الشخصيات الأخرى لا تبلغ درجة هذا الخطاب المنقبي، يقول الدرجيني: "جابر بن زيد رحمه الله، بحر العلوم العجاج، وسراج التقوى، ناهيك به من سراج، أصل المذهب وأسّه الذي قام عليه نظامه[1]، ومنار الدين ومن انتصبت به أعلامه"[2]. وينقل الشماخي هذه الترجمة بعد أن يتصرف فيها قليلا فيقول: "جابر بن زيد الأزدي رحمه الله، بحر العلوم، وسراج الدين أصل المذهب وأسّه الذي قامت عليه أطامه"[3].

3.2 خطاب الفضيلة والعلم:

فضائل جابر بن زيد في الخطاب الإباضي لم تختلف كثيرا عما رأيناه في المدونات السنية، فهي تجمع بين الكرم والعلم والذكاء والفقه؛ فجابر بن زيد هو الذي يروي أغلب الحديث[4]، وآراؤه الفقهية هي التي شكلت الفقه الإباضي، ويأتي دائما هو الاسم الأول في الطبقة الثانية وهي طبقة التابعين بعد الصحابة.

1- نعتقد أن أصل الكلمة أطامه وصحفت من الناسخ أو المحقق، وهي كما نقلها الشماخي في الفقرة التي تليها، والآطام، أطم-الأُطُم، حصن مبني بالحجارة، والأُطْم، بناء مرتفع، فتكون الدلالة هنا هو الحصن للدين المرتفع الذي قامت عليه المذهب، في معنى "أطم" يرجع إلى: محمد بن مكرم بن علي ابن منظورت 711ه)، **لسان العرب**، الحواشي، لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر ، بيروت، ط3، 1414ه)، ج12، ص19.

2- الدرجيني، المصدر السابق، ص205.

3- الشماخي، المصدر السابق، ص75.

4- في فهرس الأعلام في الجامع الصحيح يعلق محقق الكتاب عند اسم جابر بن زيد بقوله:" لم نورد الأرقام لسبب عدم خلو صفحة من اسمه تقريبا" يُنظر، الربيع بن حبيب الفراهيدي (ت حوالي 175ه)، **الجامع الصحيح**، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، عُمان، 2011م، ص192.

يقول ابن سلام الإباضي حي 273هـ/887م: "ومن تسمية فقهائنا وأئمتنا الذي نروي عنهم ديننا بعد عهد النبي عليه السلام والصحابة والتابعين يذكر أولا جابر بن زيد"[1].

وينقل ابن سلام كذلك قصة لقاء جابر بن زيد مع السيدة عائشة رضي الله عنها، وعند خروج جابر قالت: "لقد سألني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط؟"[2]، وإن بدت القصة عادية فإن مدلول الخطاب خفي في أن جابر بن زيد له علم لا يعلمه أيُّ أحد غيره، ومن القرن 3هـ إلى القرن 6هـ في "ترتيب" أبي يعقوب الورجلاني ت 570هـ/1175م[3]، ثم يظهر في القرن 7هـ في طبقات الدرجيني[4]، ويستمر شحن الخطاب للقصة نفسها التي تنبني عليها الذاكرة الخطابية مع تفاصيل أكثر ذهبت إلى إعادة صياغة النص الأصلي الموجود عند الربيع بن حبيب، بحيث يتوافق مع الخطاب الموجود في تلك الفترة؛ عمد الدرجيني هناك إلى تفاصيل أكثر حول القصة وصلت إلى نوع الأسئلة التي سُئِلتها عائشة، حتى وصلت عن كيفية جماع النبي صلى الله عليه وسلم[5]، تجعل الخطاب يحقق تفاعلا مع المخاطب، يعبر عن ذلك أحد الباحثين المعاصرين بقوله: "وهذا يدل دلالة واضحة على حرص الإمام جابر على تتبع كل ما يمكنه من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخص خصوصياته"[6].

هذه التفاصيل كانت غير موجودة في المدونة المبكرة كما رأينا عند ابن سلام، الخطاب يوضح أن التفاصيل لم يكن لها حدود حول التفقه في الإسلام، الأمر الذي يجعل جابر بن زيد نال ما لم ينله أحد غيره[7].

1- ابن سلام اللواتي الإباضي حي 273هـ)، **كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين**، تحقيق فيرنر شفارتس وسالم بن يعقوب، دار صادر، بيروت، 1986م، ص108.

2- نفسه)، ص108.

3- أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني ت570هـ)، **كتاب الترتيب في الصحيح من حديث الرسول**، تصحيح وتعليق، عبد الرزاق بن حميد السالمي، مكتبة مسقط، مسقط، 2003م، ص421-422.

4- الدرجيني، المصدر السابق، ص206.

5- نفسه)، ص207.

6- صالح الأحمد البوسعيدي، **رواية الحديث عند الإباضية -دراسة مقارنة-**، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، 1998م، ص48.

7- في الخطاب المعاصر الإباضي تنفي بعض الشروح والمدونات هذه القصة بالأساس، وتتحرج منها يقول محمد بن يوسف أطفيش:" ولا يصح ما يروى عن جابر بن زيد أنه خلا بعائشة رضي الله عنها، أو لم يخل بها، وأنه سألها حاشاها وحاشاه". ينظر، محمد بن يوسف أطفيش (ت 1332هـ)، **تيسير**

هذا الخطاب يتطور ويمكن أن يكون ساهم المخيال الجمعي في شحنه، إلى قصة يبدو أن الأسطورة وجدت لها مكانا فيها بَنَتْ على ما قيل حول جابر، خاصة وأن الشخصية محل توافق بين السنة والإباضية على حد السواء من حيث علمه ونبل أخلاقه، هذه القصة يبني عليها أبو زكريا أثناء نقله لقصة نفاث فرج بن نصر النفوسي المنشق على الإمام أفلح والذي كانت له رحلة إلى المشرق، أين يذكر أبو زكريا أن أمير المؤمنين في بغداد جعل مناديا ينادي أن من يجيبه في كل أسئلته يعطيه ما يريد، وإن لم يستطع الإجابة قطع رأسه، فتوجه نفاث إلى أمير المؤمنين وأجابه عن كل أسئلته، فكان طلب نفاث هو نسخ ديوان جابر بن زيد الموجود في خزائن الأمير، وبعد شروط تعجيزية من الأمير وحاشيته مخافة من انتشار العلم الموجود في الديوان تمكن نفاث من نسخه وحمله، حتى وصل به طرابلس فلما وجد أن أهل مذهبه لا يقدرون على استيعاب ما في الديوان، وخاف أن يسير الديوان إلى أهل الدعوة الإباضية الوهبية أخفاه في مكان ولم يعرف إلى حد الساعة[1].

والقصة واضح فيها الخطاب الأسطوري وذلك لعدة منطلقات أولها عدم ذكر اسم الأمير، ولا الرجل الذي مكث عنده نفاث في بغداد، ولا محتوى هذا الديوان، الذي استطاع نفاث أن ينسخه ويحفظه في ليلة واحدة، ومن غير المعقول أن هذا الأمير يقطع رأس إنسان فقط لأنه لا يفقه مسألة معينة! ويشحن هذا الخطاب التاريخي بعد قرنين على عهد أبي العباس الدرجيني الذي قال: "إن الديوان كان سبعة أحمال"[2]، والخطاب في القصة رغم إظهاره الازدراء والتنقيص من نفاث، إلا أنه يحمل دلالات الإعجاب الخفية بنفاث وذكائه، وفي الوقت نفسه يبين مدى أهمية ديوان جابر وحجمه الكبير، في دلالة على علم جابر ليس فقط ذلك العلم الظاهر؛ بل علمه الخفي الذي لا يفهمه إلا أهل

التفسير، تحقيق إبراهيم بن محمد طلاي، وزارة التراث والثقافة، مسقط، 2004م، ج11، ص239؛ كذلك يعلق مصطفى بن صالح باجو بقوله)، يُستبعد أن يسأل جابر عائشة عن تفاصيل جماع النبي صلى الله عليه وسلم". ينظر، أبو غانم بشر بن غانم الخراساني (ت حوالي 205هـ)، **المدونة الكبرى**، تعليق، أمحمد بن يوسف أطفيش، تحقيق مصطفى بن صالح باجو، وزارة التراث والثقافة، مسقط، 2007م، ج2، ص169.

1- أبو زكريا، المصدر السابق، ص139-142.

2- أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت حوالي 670هـ)، **كتاب طبقات المشائخ بالمغرب**، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، ص82.

الدعوة الحقة الإباضية[1]، ذلك العلم الذي يعود بنا إلى ابن سلام النفوسي وتلك القصة التي بنت ذاكرة خطابية في أن جابر بن زيد لديه علم من عائشة لا يعلمه أحد غيره.

الذاكرة الخطابية نفسها يبنى عليها وتشحن الخطاب مرة أخرى بتفاصيل أكثر يقول الدرجيني في طبقاته أن جابر بن زيد وبلال بن مرداس ذهبا إلى عائشة وعاتباها على ما كان منها يوم الجمل، فتابت مما كانت فيه[2]، في تصريح ضمني أن عائشة رجعت لمذهب جابر بن زيد وأبي مرداس، والهدف من ذلك هو الدلالة التي يحققها، في تَخطِئة عائشة والمعسكر الذي كان معها يوم الجمل، بالإضافة إلى ما تمثله عائشة في المدونة الإباضية الحديثية فهي تأتي في المرتبة الثانية من حيث رواية الحديث عند الإباضية بعد ابن عباس، ودلالة توبتها وندمها على ما بدر منها يوم الجمل يجعل نقل الحديث منها غير محرج في المدونة الحديثية الإباضية، بعد أن نال صاحباها خطاب التكفير[3]، وعادة ما تذكر هذه القصة قبل قصة جابر بن زيد وعائشة والأسئلة التي سألها إياها، وإعجاب عائشة بعلمه وحسن سؤاله، في الوقت نفسه يحقق الخطاب الموجود في القصة غاية مفادها أن جابرا وصديقه استطاعا أن يرشدا عائشة إلى الطريق الصواب، بفهمهما وفقههما في السياسة والدين.

يُبني هذا الخطاب على ذاكرة خطابية منسوبة إلى أبي قحطان خالد بن قحطان ق 3هـ وروايته حول توبة عائشة يوم الجمل، حيث تأتي القصة في معرض أحداث معركة الجمل، فيقول لها عمار بن

1- بالرغم من الجانب الأسطوري للقصة إلا أن بعض الدراسات الحديثة مررتها كحقيقة، والغريب أنها أضافت لها بعض التفاصيل غير الموجودة في مصادرها، ومنها أن الكتاب كان في مكتبة هارون الرشيد (ت 193هـ)، ونفاث بالرغم من أننا لا نملك تاريخا محددا لوفاته)، إلا أن المصادر الإباضية تتفق على أن الانشقاق الثالث المعروف بالنفاثية حدث في عهد أفلح بن عبد الوهاب، والذي حكم تيهرت بداية من 208هـ)، الأمر الذي يجعل هذه القصة وكل التحسينات عليها غير منطقية، وكل أدلة الباحث هي "ويُقال...". ينظر، عمرو خليفة النامي، **دراسات عن الإباضية**، ترجمة ميخائيل خوري، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012م، ص80-81.

2- الدرجيني، المصدر السابق، ص206؛ الشماخي، المصدر السابق، ص77.

3- يقول أبو يعقوب الورجلاني، "وأما علي بن أُبي طالب فإن ولايته حق عند الله تعالى، وكانت على أيدي الصحابة وبقية الشورى ثم قاتل طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقتاله حق عند الله تعالى لشقهم العصا عصا الأمة، ونكثهم الصفقة، فسفكوا الدماء وأظهروا الفساد، فحل لعلي قتالهم وحرم الله عليهم الجنة، فكانت عاقبتهم إلى النار والبوار، إلا ما كان من أم المؤمنين التائبة فمن تاب تاب الله عليه". أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني (ت 570هـ)، **الدليل والبرهان**، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ط2، 2006م، ج1، ص41.

ياسر رضي الله عنه: "أخبرينا عن هذا القتال الذي تقاتلينا، أعهد عهد إليك رسول الله أم رأي رأيتيه؟ فقالت عائشة: بل رأي رأيته، ففرح المسلمون وقالوا: رأي امرأة، وبصروها بالحق. فقالت: إنّي أستغفر الله وأتوب إليه، فكبّر المسلمون، حتّى سمعهم من كان في عسكرهم فكبّروا، والله أعلم، وتابت عائشة وأظهرت توبتها"[1]، فانتقلت المعاتبة في الخطاب من عمار بن ياسر إلى شخصيتين تمثلان المذهب والجماعة، هما جابر بن زيد وأبي بلال مرداس، ولم تظهر هذه القصة إلا في القرن السابع الهجري مع الدرجيني وأعاد نسخها الشماخي في القرن العاشر الهجري.

4.2 خطاب التوافق مع الآخر:

الملاحظ أن المصادر الإباضية في خطابها حول جابر بن زيد استخدمت المصادر السنية لإعطاء الشرعية المعرفية حول مؤسس مذهبهم، بينما مارست المدونات السنية الإقصاء التام للمدونة الإباضية كما رأينا سابقا، حيث ينقل الدرجيني عن أبي طالب المكي قول ابن عباس: "اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علما"[2]، ونلحظ تصرف الدرجيني في النص أو من نقله عنه، حيث نجد في قوت القلوب أن قول ابن عباس اقتصر على أهل البصرة "سلوا جابر بن زيد فلو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم علما"[3]، فلا يمكن لمؤسس مذهب بلغ المشرق والمغرب أن يبقى عالم البصرة فقط؟ بل يتجاوزها إلى كل الأصقاع التي بلغتها دعوة الإباضية.

5.2 الخطاب الكرامي:

لارتباط المؤسس دائما بأسطورة أو نبوءة أو كرامة لم يخل الخطاب الإباضي من الخطاب الكرامي، وهذا ما صرح به الدرجيني بقوله: "وله جابر بن زيد آثار كثيرة مذكورة وكرامات"[4]. فمن الكرامات المذكورة ثباته لما فزع الناس بريح وظلمة، فأتوا المسجد فثبت جابر وذكرهم بالله عند انتهاء الكرب. والخطاب يحمل دلالتين هما الثبات وسعة العلم، ومن القصص التي يذكرها الدرجيني أنه وجد رجلا يصلي فوق الكعبة فقال: أن لا قبلة له، فلما سمع ابن عباس بهذا، قال: إن هذه الفتيا لا تصدر إلا عن جابر[5]، ففيها دلالة على الذكاء وإجازة ذلك من ابن عباس وإطناب الشكر له، والدلالة الثانية أن

1- علماء أئمة عُمان، **السير والجوابات**، تحقيق سيدة إسماعيل كاشف، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1986م، ص108.

2- الدرجيني، المصدر السابق، ص205

3- أبو طالب المكي، المصدر السابق، ج1، ص254.

4- الدرجيني، المصدر السابق، ص205.

5- نفسه)، ص206.

لا شخص يمكنه أن يفقه هذه النازلة حتى ابن عباس والذي من المؤكد أنه رأى الشخص فوق الكعبة ولم يقل له شيئا، وهذا ما يحاول قوله الدرجيني بقوله "ومقامات في العلم تعلو المقامات"[1]، أي أن مقام جابر لا يضاهيه أحد، وإن كان الدرجيني استخدم خطابا خفيا في ذلك، فإن البغطوري صرح بقوله: "وأما جابر فقد وسع زقُّه زقَّ ابن عباس، فلما مات ابن عباس قال جابر": مات رباني هذه الأمة"، ولما مات جابر قال أبو عبيدة: "مات رباني هذه الأمة"[2]. إذا ففي خطاب المدونة الإباضية حول جابر بن زيد وعلمه وفقهه وحسن فهمه يعد هو العمدة والأسُّ في المذهب ولا يمكن مقارنته إلا بالصحابة.

ضمن الخطاب الكرامي نفسه، تروى قصة جابر بن زيد الذي يحج كل عام، ولكن في تلك السنة يحبسه عامل البصرة ويمنعه من الحج، فيستطيع أن يتسلل ويجهز ناقته، وقد بدا هلال ذي الحجة، فيصل بناقته والناس على عرفات، وناقته منهكة، فيرد على من طالبه بتذكيتها بقوله: "حقيق لناقة رأت هلال ذي الحجة بالبصرة أن تفعل هذا"[3]، ولكن هذا الخطاب لم يبن على ذاكرة خطابية إباضية بل أعيدت صياغته من المدونة السنية، فقصة جابر بن زيد وناقته التي يحب أن يحج عليها، والتي كان يسميها "جزّة"، موجودة في المدونة السنية المبكرة[4]؛ فأبو نعيم الأصبهاني ت 430هـ/ يذكر القصة مختصرة بأن "جابر بن زيد خرج على ناقة له بالهلال فوافى الموسم"[5]، ليأتي بعده الخطيب البغدادي ت 463هـ/ ويفصل في القصة بمحتوى مشابه لما أتى به الدرجيني في القرن 7هـ، ونسخه عنه الشماخي في القرن 10هـ[6]، فيما يبدو أن عملية المثاقفة والانفتاح على المدونة السنية بدأت في القرن السادس مع أبي يعقوب الورجلاني، والأمر بحاجة لدراسة مستقلة.

6.2 الجماعة وخطاب التوافق مع المؤسس:

1- نفسه)، ص205.

2- مقرين بن محمد البغطوري النفوسي حي590هـ)، **روايات الأشياخ أشياخ جبل نفوسة الشهير بسير البغطوري**، تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، مكتبة خزائن الآثار، بركاء-عُمان، 2017م، ص101.

3- الدرجيني، المصدر السابق، ص208؛ الشماخي، المصدر السابق، ص76.

4- الفسوي، المصدر السابق، ج2، ص15؛ أبي زرعة الدمشقي، المصدر السابق، ص672.

5- أبو نعيم الأصبهاني، المصدر السابق، ج3، ص86.

6- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، **موضح أوهام الجمع والتفريق**، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار المعرفة، بيروت، 1407هـ، ج1، ص124.

حول علاقة جابر بن زيد بالإباضية، فإلى جانب تلك العلاقة في رواية الحديث والفتاوي عنه وآرائه الفقهية، من طرف أعلام الإباضية، خاصة أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة، تأتي إلى جانب هذا الكثير من النصوص مُحمَّلة بهذه العلاقة، والتي لا تحمل في طيات الخطاب هذا الانتماء إلى المذهب بقدر ما حُمِّل خطابها الضمني بأن الجماعة كانت لا تصدر إلا على رأي جابر بن زيد، حيث يقول الشماخي: "وفي حفظي أنه -عبد الله بن إباض- يصدر في أمره عن رأي جابر بن زيد"[1]، فالشماخي في القرن العاشر الهجري انفرد بهذا القول، وعلى الرغم من أنه يرى بأنه مجرد رأي، إلا أن الأمر بحاجة إلى بحث في سياقات الخطاب والظروف الدائرة به، وفيما إذا كان خطابه موجها للرد على مدونات إباضية قبله، مثل البرادي الذي جعل في جواهره أن ابن إباض هو أساس المذهب وعمدته[2]، مما جعل الشماخي يترجم له بترجمة مقتضبة جدا لا تليق بمؤسس فرقة كما زعم ذلك البرادي؟ أو أن الأمر جاء كرد على إكراهات خطاب دعائي من المخالفين في محيط الشماخي المالكي؟

ومن قصص العلاقة بين جابر بن زيد والإباضية، اخترنا ثلاث قصص تحمل في مجملها خطاب التناغم والتفاهم بين المؤسس وجماعته، قصة امرأة من أهل الدعوة الإباضية دار حديث بينها وبين جابر، فقال لها: "إني أحبك"، ثم افترقا، فلحقها وقال لها: "في الله"، قالت: "وما تظن أني حملت ذلك على غير الحب في الله؟ أي والله في الله"[3]. أما القصة الثانية عن رجلين من أهل الدعوة مرَّا بالقرب من جابر وهما يذكران رجلا، فقالا: عليه لعنة الله، فقال جابر بن زيد: لعن الله من لعنتما، فاستغربا ذلك من جابر، فقال لهما: وأي شيء أثبت منكما وقد أجمعتما على لعنه؟[4]، وكلا القصتين تبينان روح الانسجام بين جابر بن زيد وأتباعه، ويبين الخطاب الضمني فيها، أن الأتباع لم يكونوا أناسا بسطاء بل كانوا على قدر كبير من الفقه والعلم.

ومن القصص التي فيها خطاب التهديد في السير الإباضية قصة قتل خردلة[5]، ومختصرها أن شابا سأل سأل جابر بن زيد عن أفضل الجهاد؟ فقال له قتل خردلة، فدلوه عليه وهو يصلي، فقتله بخنجر مسموم، فقام الأمير بقتل الشاب بعدما ثبت بعدم البوح بمن أمره بقتل خردلة، وهي قصة تبدو من

1- الشماخي، المصدر السابق، ص81.

2- أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرادي ت697هـ)، **الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات**، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، دار الحكم، لندن، 2014م، ص174.

3- الدرجيني، المصدر السابق، ص209؛ الشماخي، المصدر السابق، ص80.

4- الدرجيني، المصدر السابق، ص213.

5- أبو الطاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي ت750هـ)، **قواعد الإسلام**، تحقيق بكلي عبد الرحمان بن بن عمر، مكتبة الاستقامة، مسقط، ص77-78؛ الشماخي، المصدر السابق، ص79-80.

تفاصيلها أنها تناص حول ما حدث لعلي بن أبي طالب رضي الله مع أبي ملجم، وخطاب التهديد واضح فيها حول أن كل من ينشق على الجماعة أو يعارضها يكون مصيره مصير خردلة[1]. ومن خلال تتبعنا للقصة وجدنا أن ذاكرة المخيال الجمعي ساهمت في رسم أحداثها وذلك للاختلافات الكبيرة بين كل مصدر وآخر[2].

وفي كل القصص الثلاث تحمل النصوص ذلك الخطاب التوجيهي للمؤسس وعلاقته بطلابه ومريديه من أهل المذهب، وتحمل النصوص دلالة أن الإباضية في حياة جابر بن زيد لم تكن تصدر إلا عن رأيه، ولم تكن تعمل إلا تحت سلطته.

7.2 جابر بن زيد والسلطة.. خطاب التنافر والتقارب:

في علاقة جابر بن زيد بالسلطة، يأتي الخطاب مشحونا بالعداء والمعارضة وعدم الرضا عن السلطة وإن كان الخطاب غير مرئي، وأتى في مجمله ضمنيا خفيا، ذلك لأن جابرا لم يقم بأي نشاط مناوئ للسلطة، ولم تعتبره السلطة يوما كعدو، بل حاولت السلطة ممثلة بوالي العراق الحجاج في كثير من المرات أن تعرض عليه مناصب عليا في الدولة من بينها القضاء[3]، وبالرغم من رفضه لأي منصب في الدولة لأنه يعتبر نفسه بذلك معينا للظلم والطغيان، إلا أنه لم يرفض أعطيات السلطة، وكان صديقا مقربا من كاتب الحجاج يزيد بن مسلم[4]، ولا يخفى خطاب الكراهية والاستهزاء بالسلطة؛ من ذلك القصة التي راسل فيها كاتب الحجاج جابر بن زيد يستفتيه في أمر الحجاج، وما وقع في نفسه من أمر القدر، فأجابه أن يردد خطبة الحاجة، ففيها الشفاء، ولم ينتبه الحجاج لما أراده جابر في خطابه له إلا بعد فترة في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَن يَهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له"[5]، ودلالة الخطاب أن الحجاج أراد الله به الضلالة، فلا يمكن لجابر بن زيد أن يريه طريق الهدى ويريح قلبه[1].

1- النامي، المرجع السابق، ص265.

2- ينظر في الموضوع حاشية: أمحمد بن يوسف أطفيّش ت1333ه)، **شرح كتاب النيل وشفاء العليل**، دار الفتح، بيروت، 1972م، ج14، ص507-509.

3- الدرجيني، المصدر السابق، ص211؛ الشماخي، المصدر السابق، ص78.

4- الدرجيني، المصدر السابق، ص211-212؛ الشماخي، المصدر السابق، ص79.

5- أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت 275 ه)، **سنن أبي داود**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2009م، ج3 ص 456 2218؛ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت 279 ه)، **الجامع الكبير سنن الترمذي**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ج2 ص 398 1105؛ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني

8.2 علاقة جابر بالإباضية.. الآخر والخطاب المضاد:

رأينا كيف تأثر الخطاب السني بالخطاب الإباضي حول انتماء جابر فكان الخطاب السني يرد صراحة بأن الإباضية تنتحل جابر بن زيد، فهل تأثر الإباضية بالخطاب السني، حول شخصية تمثل العمدة والأساس الذي قام عليه المذهب، فاعتمد الخطاب السني على تبرئة جابر من الإباضية وهو على فراش الموت، حتى لا يكون هناك أي مدخل للقول بأنه غيّر مذهبه كما رأينا سابقا. نلحظ عدم تأثر الخطاب الإباضي في مجمله بالخطاب السني في نفي إباضية جابر، ولكن هناك إشارة خفية عند البغطوري حي 590هـ يتحدث فيها عن القصة نفسها، وهي قصة جابر وطلبه الأخير وهو على فراش الموت، واشتهائه نظرة من الحسن البصري، وبعد الحديث الذي دار بينهما والذي يبدو أن البغطوري تصرف في مجمله، يقول في نهاية الحديث: "فما أفاض بعدها بكلام"[2]، في تصريح ضمني أن جابرا لم يقل شيئًا في هذه الجلسة عن انتمائه، وأنه سكت إلى أن مات في دلالة واضحة على أن البغطوري تأثر بالخطاب السني.

3. بنية الخطاب الإباضي:

يلاحظ أن الخطاب التاريخي الإباضي حول جابر بن زيد لم يكن على مستوى واحد، ولم يكن يرمي إلى دلالات وأهداف واحدة بل كان متنوعا، بحسب النص والسياق النصي الذي أتى فيه، ولكن هو لا يخرج من بين البنية الصريحة المرئية، وبين البنية الضمنية المخفية.

1.3 بنية الخطاب المرئية:

ونقصد بها كل ما حاول الخطاب الجهر به وعدم إخفائه وتمريره في خطاب صريح للمتلقي، وتتشكل بنية هذا الخطاب من:

-**الخطاب المعرفي العلمي**: وتمثل في إيراد الكثير من القصص والروايات التي تحمل خطاب العلم والمعرفة والفقه في الدين، الخطاب الذي يحاول إعطاء الشرعية الدينية لجابر بن زيد وبأنه لم يكن رجلا عاديا في فهم النصوص، بل كان ذا ذكاء وفطنة. من تلك القصص ما ذكرنا سابقا حول الرجل الذي يصلي فوق الكعبة، ويوم وفاته قال أنس بن مالك: "اليوم مات أعلم من على ظهر الأرض" أو قال

النسائي (ت 303 هـ)، **سنن النسائي**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1930م، ج6 ص89 3277 باختلاف يسير.

1- الدرجيني، الطبقات، ص212؛ الشماخي، المصدر السابق، ص79.

2- البغطوري، المصدر السابق، ص101.

"مات خير أهل الأرض"[1]. إن مثل هذه النصوص التي تؤصل لجابر العالم الفقيه، تجعل المتلقي يتفاعل مع الخطاب، بأن مؤسس مذهبه وفرقته لم يكن بالشخص العادي.

-الخطاب الكرامي: وقد تحفظنا على استخدام مصطلح الخطاب الأسطوري، لأنه يتداخل كثيرا مع الخطاب الكرامي، ويحاول هذا النوع من الخطاب إلى جانب الخطاب الأول المعرفي، تصدير جابر بن زيد على أنه كان مستجاب الدعاء، وأن الكرامات التي صوّر بها تجعله مرضيا من عند الله، وهنا يُعطى المتلقي للخطاب مستوى ثاني من التفاعل حول هذه الشخصية، التي صاحبتها كرامات أولياء الله، وهنا وجب العودة ودراسة السياق التي أتت فيه هذه القصص وتأثرها بالتصوف السني، أين أصبح المغرب الإسلامي مجال تصوّف، خاصة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين[2].

-خطاب الجماعة: تحاول مدونة السير على وجه التحديد إبراز خطاب الجماعة في سيرة وترجمة جابر بن زيد، وتبرز علاقته بمن يدين بالمذهب ومن يطلق عليهم اسم "أهل الدعوة"، ليؤكد الخطاب في كل مرة أن جابرا لم يكن ببعيد عن الجماعة، ولا الجماعة في وقته كانت تصدر عن غير رأيه.

-الآخر في الخطاب الإباضي: ويأتي هذا الخطاب أحيانا في صورة ضمنية غير مرئية، هي كما رأينا في محاولة البغطوري الرد على الخطاب السني الذي يبرئ جابر من الإباضية وهو على فراش الموت، ولكن الآخر في المجمل يأتي في خطاب صريح مثل محاورة جابر بن زيد للخوارج وإفحامهم[3]، كذلك تأتي سيرة جابر بن زيد محملة بالثناء عليه من الآخر السني ولم يتحرج الراوي من النقل من عند الآخر لأن خطاب الآخر في الإجماع على هذه الشخصية من حيث العلم والفضيلة والكرم والزهد، وإن كان خطاب الجماعة أتى لكي يجعل جابر بن زيد داخل الإطار الإباضي، أتى خطاب الآخر للدلالة على أن جابرا لم يكن منهم ولا هم كانوا منه.

2.3 بنية الخطاب غير المرئية:

ونقصد بها تلك البنيات التي كونت الخطاب الإباضي حول جابر بن زيد، ولكنها لم تكن ظاهرة بل مستترة وراء المعنى، ولم يصرح بها النص ولكن تفهم من السياق.

-السلطة وجابر في الخطاب: من خلال أغلب النصوص التي بين أيدينا وللعلاقة المتوترة للجماعة الإباضية بالسلطة فإن الخطاب في المدونة جاء مسترا محمولا في مضامين النصوص ولا يصرح به، خاصة إذا كانت العلاقة بين جابر بن زيد والسلطة فيها نوع من التقارب، يحمل الخطاب على إخفاء

1- الدرجيني، المصدر السابق، ص205.

2- يراجع، الطاهر بونابي، **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط حلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين**، أطروحة دكتوراه)، جامعة الجزائر، 2008-2009م.

3- الدرجيني، المصدر السابق، ص208-209؛ الشماخي، المصدر السابق، ص80-81.

تلك العلاقة من حقيقة الواقعة ويجعلها أمرا هامشيا في حياته، من ذلك علاقة جابر بن زيد بكاتب الحجاج يزيد بن مسلم، فتلك العلاقة حاول الخطاب تهميشها، وجعل من تفاصيل أخرى هي من مبادئ الجماعة تظهر أكثر في سياق النص، من ذلك رفض جابر للقضاء، وتحججه بالضعف وعدم إعانة الطغاة، ومعارضته للسلطة والنقم عليها، يبدو ذلك جليا في جوابه للحجاج في موضوع القدر.

-المخيال الجمعي: وهذه البنية هي التي شحنت أغلب النصوص السيرية الإباضية خاصة تلك المتأخرة منها، ما جعلنا نتساءل عن تلك السيرة الطويلة التي جاءت متأخرة لا سيما مع الدرجيني والشماخي، وكمية نصوص حول جابر بن زيد لم تكن معروفة في السير التي قبلها، فمن أين أتت هذه النصوص؟ وكيف وصلت إلى السير؟ من المؤكد أن الذاكرة الجمعية تناقلت الكثير من الحكايات حول جابر بن زيد، مما يبرهن على هذه القضية انقطاع سند أغلب تلك القصص، ويرجح أنها أتت من خلال الذاكرة الشعبية، وقام المخيال الجمعي بشحنها مع مرور الزمن، لتجد طريقا لتلك السير لمحاولة إظهار مؤسس المذهب بذلك الكمال[1].

-الذاكرة الخطابية التناص: وبالرغم من أننا لم نستطع إظهاره إلا مرة وحيدة وهي قصة أمر جابر للشاب بقتل خردلة في ذاكرة خطابية تعود بنا، إلى قتل ابن ملجم لعلي بن أبي طالب، ولكن من المؤكد أن الكثير من القراءات ستكشف عن الكثير من الأمثلة حول هذه البنية، التي تعيد إنتاج نفسها بصور متعددة وأصل واحد يعتمده الخطاب لتحفيز المتلقي.

- **الخاتمة:**

يعد جابر بن زيد أحد رواة الحديث الثقة في مدونات الرجال في علم الحديث، وكل التراجم السنية التي جاءت بعدها أخذت الهيكل نفسه لترجمة جابر بن زيد، وعدلته وما يتناسب وقالب التاريخ العلمي والثقافي الذي كان هو لسان النخبة العالمة الوسيطية السنية، في شخصية مزجت بين العلم والفقه والحكمة والكرم والتعبد والزهد، مع إجازة سلفه واعتراف أقرانه ومديح خلفه بذلك، فجابر بن زيد في الخطاب السني الوسيطي رغم طوله وتعدد أصناف مظانه لم يخرج عن ذلك الخطاب الفضائلي.

مارس الخطاب السني الإقصاء للإباضية بشكل عام فقد عَدَّهُم من أهل البدع والأهواء، فلم يعتمد على أقوالهم وسيرهم في ترجمة جابر بن زيد رغم أن مدونتهم كانت محمَّلَة بسيرة جابر -هذا التغييب يفتح الكثير من التساؤلات يمكن أن تكون دراسة لاحقة- وفي السياق نفسه كان الخطاب

1- شحن النصوص السيرية من خلال المخيال الجمعي ليس أمر خاص بجابر بن زيد بحد ذاته بل هو أحد روافد كتابة منظومة السير الإباضية خاصة تلك المتأخرة منها والموضوع يبحث فيه في دراسة مستقلة.

السني صريحا في نفي صلة جابر بن زيد بالإباضية وتبرئته منهم، فيما يبدو أنه تأثر كبير بالخطاب الإباضي الذي كان في محيط العراق عموما والبصرة خصوصا.

إن المنحى الذي أخذه الخطاب الإباضي حول جابر بن زيد ليس هو المنحى نفسه الذي أخذه الخطاب السني حول الشخصية ذاتها، فإكراهات الواقع السياسي والاجتماعي والمذهبي للجماعة الإباضية لم يكن هو نفسه واقع جماعة عاشت تحت كنف السلطة، فكانت الجماعة في سياق النص الخطابي حول جابر بن زيد تبحث عن جابر المؤسس لصناعة هويتها والمحافظة عليها وتأصيلها وجعلها ثابتة متواصلة عبر أجيال الجماعة، جماعة معارضة للسلطان وعانت من ويلات وجور ولاته وخدمه، كل هذا كان السياق الذي أنتجت فيه النصوص.

مُزج أغلب الخطاب الإباضي حول جابر بن زيد المؤسس للمذهب، وحتى يكون ذا قبول عند المخاطب تم تغليف كل ذلك بخطاب الفضيلة مثلما رأينا في المدونة السنية، بل زاد عليه بخطاب كرامي حملته الكثير من النصوص القصصية حول جابر بن زيد، وبالرغم من أن الكرامات في الخطاب الجابري إن صح التعبير لم تكن بتلك المبالغات التي عادة ما نجدها في مناقب الصوفية عند السنة إلا أنها حملت دلالات العبادة وحسن التوكل على الله واستجابة الدعاء، لتعطي للمُخاطب صورة ذهنية أنه ليس أمام رجل غير عادي، استحق أن يكون مؤسس مذهبه.

لإعطاء صدقية حول جابر بن زيد استعملت المدونة الإباضية نصوصا من المدونات السنية، ورغم أنها تصرفت في بعض الروايات فيها، فهذا يدل على انفتاح الإباضية على محيطهم في حدود معينة بما يخدم خطابهم، هذا لانفتاح واجه تغييبا كاملا من المدونة المقابلة السنية، ولكن رأينا أن الخطاب الإباضي حول علاقة جابر بن زيد بالسلطة تميز بالحدة وأن جابرا كان المعارض الدائم والنافر من السلطة وخدمتها، وهذا ليتناسب مع روح المذهب الذي يظهر نفسه كمعارض للسلطة فيعطي لهذه المعارضة سندا من المؤسس، ولكن الخطاب يكشف في مضامينه أن العلاقة لم تكن دائما تنافرية، بل هناك تقارب مع جابر وكاتب الحجاج وأخذه العطاء فيما يبدو متنافيا مع مبادئ الجماعة، ولكن الخطاب يفسره على أنه مصلحة ويجوز التعامل بها، ليصوغ فيما بعد العمل لدى السلطة.

تحاول المدونة الإباضية في خطابها التأصيل لجابر المؤسس ليس فقط بفضائله وفتاويه في المذهب التي اعتمدتها المدونة الفقهية الإباضية فيما بعد، بل في أن جابر بن زيد هو المنظّر للجماعة، والساهر على حمايتها من المغرضين والأعداء، ليتعدى من دوره الفقهي العلمي إلى الدور العملي التنظيمي، وفي الخطاب المضاد لخطاب الآخر حول براءة جابر بن زيد من الإباضية فإن الخطاب الإباضي تجاهل تماما هذه الدعاوى، ولم يعبر عنها الخطاب إلا نادرا في خطاب مضمر كما رأينا عند البغطوري.

اعتمدت المدونة الإباضية في خطابها حول جابر بن زيد على بنية خطابية ظاهرة وأخرى مخفية؛ تمثلت بنية الخطاب الظاهرة في المعرفة العلمية وكل ما يتصل بها حامل العلم من فقه ونباهة وكرم وزهد، وهذه البنية هي التي غلبت على الخطاب وشكلته، وذلك أن المشروعية العلمية والفضائل

الأخلاقية هي من تلقى تفاعلا واحتراما لدى المتلقي، في حين شكلت الكرامة جزءا من البنية الخطابية كملحق للبينة العلمية حتى تكتسي الشخصية قيد الدراسة نوعا من التقديس.

الجماعة والفرقة كذلك شكَّلت البنية الخطابية كرافد أيديولوجي ربط جابر بن زيد المؤسس بأتباعه، في حين بدا صوت "الآخر" المختلف مذهبيا والمنشق عن الجماعة مسموعا حينا وخافتا أحيانا ولكن بنية الخطاب من الآخر خاصة ذلك الذي كان دائما في دائرة "الخوارج" كان مسموعا في الخطاب، وهدف الخطاب الإباضي على تقزيمه وتبديعه بصورة ظاهرة بادية، في حين أن الآخر المختلف مذهبيا السنة كان ظهوره خفيا ومضمرا.

بالنسبة للخطاب اللامرئي الخفي تشكل من السلطة الذي جعل الخطاب منها شيئا مذموما ينفر منه مؤسس الفرقة ويعارضه في تناسب مع مبادئ المذهب، أما شحن النصوص بالمخيال الجمعي فقد شكل جزءا كبيرا من بنية الخطاب الإباضي خاصة في المدونة المتأخرة، فوجدنا نصوصا فيها خطابات لم تكن في المصادر المبكرة مما يدل على أنها تشكلت بواسطة المخيال الجمعي فشحنت الخطاب بها. بينما رأينا كيف شكلت الذاكرة الخطابية للنص السيري، وبالرغم من أننا لم نستطع سوى الظفر بنص واحد إلا أن القراءات المتأنية ستكشف -حتما- على الكثير من هذه البنية، وقد ظهرت الحنينية كبنية خفية في أغلب الخطاب "نوستالجيا" مقرونة بزمن التأسيس والرعيل الأول الذي أسس على أكتافه المذهب وقامت على يديه الجماعة.

المصادر:

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين (ت 630هـ)، **اللباب في تهذيب الأنساب**، دار صادر، بيروت.
2. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت 630هـ)، **اللباب في تهذيب الأنساب**، مكتبة المثنى، بغداد.
3. ابن العمادي، عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت 1089هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1986م.
4. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1986م.

5. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني (ت 852هـ)، **تهذيب التهذيب**، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، 1908م،
6. ابن حنبل، عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ)، **العلل ومعرفة الرجال -رواية ابنه عبد الله-**، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، دار الخاني، الرياض، 2001م.
7. ابن سعد، أبو عبد الله محمد البصري (ت 230هـ)، **الطبقات الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
8. ابن سلام، اللواتي الإباضي (حي 273هـ)، **كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين**، تحقيق فيرنر شفارتس وسالم بن يعقوب، دار صادر، بيروت، 1986م.
9. ابن معين، أبو زكريا يحيى (ت 233هـ)، **التاريخ -رواية أبي الفضل العباس الدوري-**، تحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1979م.
10. ابن منده، عبد الرحمان الأصبهاني (ت 470هـ)، **المستَخرجُ من كُتب النَّاس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرِّجال للمعرفة**، تحقيق عامر حسن صبري التَّميميُّ، وزارة العدل والشئون الإسلامية، البحرين.
11. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت 711هـ)، لسان **العرب**، الحواشي، لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ1- الفراهيدي، الربيع بن حبيب (ت حوالي 175هـ)، **الجامع الصحيح**، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، عُمان، 2011م.
12. أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت 275 هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2009م.
13. ـــــــــــــــ **سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني في الجرح والتعديل**، تحقيق محمد علي قاسم العمري، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1983م.
14. أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني (حي 474هـ)، **كتاب السيرة وأخبار الأئمة**، تحقيق عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م.

15. أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي (ت 386هـ)، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.
16. أبو غانم بشر بن غانم الخراساني (ت حوالي 205هـ)، **المدونة الكبرى**، تعليق، أمحمد بن يوسف أطفيش، تحقيق مصطفى بن صالح باجو، وزارة التراث والثقافة، مسقط، 2007م.
17. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت 430هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، مطبعة السعادة، مصر، 1974م.
18. أبي زرعة، عبد الرحمن بن عمرو المشهور الدمشقي (ت 281هـ)، **التاريخ**، تحقيق شكر الله نعمة الله القوجاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1982م.
19. بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي الهِجراني الحضرمي الشافعي (ت947 هـ)، **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**، تحقيق بوجمعة مكري وخالد زواري، دار المنهاج، جدة، 2008 م.
20. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ)، **التاريخ الكبير**، تحقيق محمد بن صالح بن محمد الدباسي، الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 2019م.
21. البرادي، أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرادي (ت697هـ)، **الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات**، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، دار الحكم، لندن، 2014م.
22. البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب (ت 463هـ)، **موضح أوهام الجمع والتفريق**، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار المعرفة، بيروت، 1407هـ.
23. البغطوري، مقرين بن محمد النفوسي (حي590هـ)، **روايات الأشياخ أشياخ جبل نفوسة الشهير بسير البغطوري**، تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، مكتبة خزائن الآثار، بركاء-عُمان، 2017م.
24. البَلَاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت 279هـ)، **جمل من أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، 1996م.
25. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت 279 هـ)، **الجامع الكبير سنن الترمذي**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.
26. الجيطالي، أبو الطاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي (ت750هـ)، **قواعد الإسلام**، تحقيق بكلي عبد الرحمان بن عمر، مكتبة الاستقامة، مسقط.

27. الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي (ت 385هـ)، **الإلزامات والتتبع**، تحقيق أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1985م.
28. الدارمي، محمد بن حبان بن أحمد البُستي (ت 354هـ)، **الثقات**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند، 1973م.
29. الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت حوالي 670هـ)، **كتاب طبقات المشائخ بالمغرب**، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة.
30. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 748هـ)، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
31. ـــــــــــــــــ، تاريخ **الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.
32. ـــــــــــــــــ، تذكرة **الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
33. ـــــــــــــــــ، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1985م.
34. ـــــــــــــــــ، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.
35. الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم (ت 327هـ)، **الجرح والتعديل**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1952م.
36. السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي (ت 562هـ)، **الأنساب**، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند، 1962م.
37. الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928هـ)، **كتاب السير**، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
38. الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت 476هـ)، **طبقات الفقهاء**، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970م.
39. علماء أئمة عُمان، **السير والجوابات**، تحقيق سيدة إسماعيل كاشف، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1986م.

40. الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت 277هـ)، **المعرفة والتاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1974م.
41. الكرابيسي، أبو أحمد الحاكم محمد بن محمد النيسابوري (ت 378هـ)، **اللاسامي والكنى**، تحقيق أبو عمر محمد بن علي الأَزهري، دار الفاروق للطباعة والنشر، القاهرة، 2015م.
42. المزي، يوسف بن عبد الرحمن القضاعي الكلبي (ت 742هـ)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980م.
43. مسلم، بن الحجاج (ت261هـ)، **الكنى والأسماء**، تحقيق عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1984م.
44. مقاتل، أبو الحسن بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت 150هـ)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق عبد الله محمود شحاته)، دار إحياء التراث، بيروت، 2002م.
45. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني (ت 303 هـ)، **سنن النسائي**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1930م.
46. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحي بن شرف (ت 676هـ)، **تهذيب الأسماء واللغات**، دار الكتب العلمية، بيروت.
47. الورجلاني، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم (ت 570هـ)، **الدليل والبرهان**، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ط2، 2006م، ج1، ص41.
48. ـــــــــــــــــ، **كتاب الترتيب في الصحيح من حديث الرسول**، تصحيح وتعليق، عبد الرزاق بن حميد السالمي، مكتبة مسقط، مسقط، 2003م.
49. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت 626هـ)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.

المراجع:

1. أطفيّش، محمد بن يوسف (ت 1332هـ)، **تيسير التفسير**، تحقيق إبراهيم بن محمد طلاي، وزارة التراث والثقافة، مسقط، 2004م.
2. ـــــــــــــــــ (ت1333هـ)، **شرح كتاب النيل وشفاء العليل**، دار الفتح، بيروت، 1972م.
3. بونابي، الطاهر، **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط حلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين**، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2008-2009م.

4. صالح الأحمد البوسعيدي، **رواية الحديث عند الإباضية -دراسة مقارنة-**، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، 1998م.
5. عمارة، علاوة، "بين الاعتناق والقتل.. حال مآل الإباضيين المغاربة من خلال النصوص الفقهية المالكية"، ترجمة عبد القادر مباركية، **مجلة مدارات تاريخية**، جامعة حمة لخضر، الوادي (الجزائر)، المجلد الثاني، عدد6، جوان 2020م، ص272-291.
6. النامي، عمرو خليفة، **دراسات عن الإباضية**، ترجمة ميخائيل خوري، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012م، ص80-81.